وبين ساحتها الآثار ثابتة
كالراسيات وابراج واقواس
تجسم الفخر في تلك المعاقل والـ
جميل للفخر قلب والندا رأس
والمجد فيها مقيم والمهابة والـ
جلال والعزم والسلطان والباس
وماؤها السلسبيل العذب باكره
ريح الصبا وهواه الخمر والكاس
ما مر منها امرء الا ومر به
ريح هو المسك انفاس بانفاس

حقا انه لوصف سطحي وذوق الشاعرين واحد والصلة بينهما معروفة كونها البيئة والوسط ووحدة الاتجاه في الشاعرية والتفكير ، وابيات شاعرنا الشنجيطي كاطلال خربة متهدمة فجاء التشطير كترميم لها ولكن الترميم لم يكن سوى حجارة وطوب واكداس من التراب فهي كما يقول الشاعر خلو من الجمال براء او ان شئت سمها بالمثل الدارج المشهور خبز وزيتون ومغفرة .

ونحن قبل ان نودع الشاعر لتناول غيره وهم كثير ننصح له ان يراعي ذوق العصر ويحرص على سمعة المغرب الادبية من أن يقرأ ادباء مختلف الجهات مثل هذا الضرب من شعر الهذيان والحشو ، وقبل ان يخرج قصيدته للطبع والنشر يجب ان يذكر ما ستحدثه في الاجواء الادبية ويكون لها من اثر ، والشعر بمثابة شاهد على ما وصل اليه القطر من رقي وتهذيب او عبث وسخف ، ونحن نبرأ الى الله من العبث ونعيذ الشعر والشعراء من الفهاهة والهذيان ولغو القول .

(ابن عباد)

نابغة بفاس

إن الموسيقى ضرورية للانسان في كل زمان وفي كل مكان وهي وإن لم تكن بماسة الحاجة في جميع الاوقات كالضروريات الاخرى فانه لابد للانسان منها في بعض الاحيان ، على أن الضروريات الاخرى مثل الاكل والشرب انما نحتاج اليها في حالة واحدة هي حالة الجوع أو حالة العطش . أما الموسيقى فلا غنى للانسانية عنها في حالتي سلمها وحربها وفرحها وحزنها ودينها ولهوها ، وليست الموسيقى مجرّد فنّ فقط بل هي فنّ وفوق الفنّ لان سائر الفنون الاخرى تحتاج الى ثقافة ما خصوصية تهيئ صاحبها الى الاهتداء لمواضع الحسن وملامح الجمال أما الاعجاب بالموسيقى والتأثر بها وحبها فذاك طبيعة في الانسان وغريزة من غرائز النفوس العميقة التي لا يمكن استئصالها ويبدو ذلك جلياً لمن يراقب حالات الاطفال حتى في إبان الرضاع فانهم إذا سمعوا أي موسيقى هشوا وبشوا وتحرّكت أعضاءهم من تأثير ما طرق سمعهم مندفعين الى ذلك بداهةً من غير محاكاة ولا اقتداء بمن هو أكبر منهم سناً ، وليس هذا التأثير وهذا الاعجاب بالموسيقى مقصورين على الانسان وحده بل يشترك فيهما الانسان والحيوان كما ذلك معلوم عند جميع الناس بالمشاهدة أو السماع .

لا نعني بهذا أن كل نوع من أنواع الموسيقى يعجب سائر الناس على الاطلاق بل تختلف الاذواق باختلاف المدنيات والاقاليم والاجيال فتوجد أمم يبلغ بهم الرقيّ بحيث تكون لهم قابلية على تذوّق كثير من أنواع الموسيقى كما توجد أيضاً أمم متوحشة يعنيها ابن الرومي بقوله :

بهائم لا تصغي الى شدو معبد
وأما على جافي الغناء فتطرب

والناس في هذا طبقات مختلفة كلّ طبقة لها نوع أو أنواع من الموسيقى تعجب بها وتطرب لها أو لما شابهها وقاربها ولكن مهما بلغ بنا هذا الاعجاب وهذا التأثير فانه لا يجعلنا نكتفي بأنواع مختصة محدودة نصطفيها دواماً واستمراراً ولا يغنينا عن أن تتوق انفسنا الى سواهـا ، إن الناس لمشغوفون حقاً بما ألفوه وتعوّدوه ووافق حالتهم النفسية ، اما إذا تطوّرت هذه الحالة ـ وكثيراً ما تتطوّر لسبب من الاسباب المعروفة في التاريخ ـ فان الموسيقى لا تلبث أن تتغير بتغيرها لتبقى النسبة بينهما محفوظة والصلة ثابتة .

ليس لنا اليوم في المغرب الا بضاعة مجزاة في عالم الموسيقى مما بقي لنا من ثروة الأقدمين الوافرة في هذا الفن وليس الذي ابتكره الاقدمون وتفننوا فيه بالنسبة مما تخلف لنا عنهم الا كالشيء وظله لان العلم أو الفن الذي يتناقله الناس ويرويه جيل عن جيل ولا سيما عند عدم التقييد والضبط إنْ هو الا كماء المستنقعات بينما يكون صافياً في أوّله اذا به عند توالي الايام يكدر ويخبث ويجف شيئاً فشيئاً الى أن يصير أثراً بعد عين .

هذه هي حالة الموسيقى اليوم في المغرب ، فاذا التمسنا العلل التي من أجلها نرى الموسيقى المغربية في حالة يرثى لها من التأخر والجمود وجدنا منها :

أولاً — وهو سبب أساسي ـ عدم الحروف الموسيقية عندنا المعبر عنها اليوم بـ « النوطا » التي كان يمكن لها أن تعين المنشئ على تقييد ما يحول بذهنه من الانغام وتثبت القطعة برمتهـا الى أن تنقل وتحفظ وتؤدى في كثير من الامانة والاتقان .

ثانياً — ازدراء الموسيقيين وعدم تشجيع البارزين منهم فغير مجهول أن جل الذين يتعاطون فنّ الموسيقى انما يفعلون ذلك ليرتزقوا به حين لا يجدون حرفة أخرى تغنيهم عن حرفة الطرب وهم في هذه الحال انما يحسنون ما لابد منه لينالوا به ما يكفيهم ويسد خلتهم وما هم ببالغيه الا بشقّ الانفس فانهم لا يجدون من يجزل عطاءهم ولا من يحترمهم ويجلّ نوابغهم ويشجعهم كما كان يُفعل بأخوانهم من قبل أمثال معبد وزرياب وغيرهم ممن كانوا يلقون من عظيم الاعتناء والحفاوة ما يحدّثنا به التاريخ وما كان يجعلهم بمعزل عن جهاد الحياة وعناء الضروريات فكانوا ينقطعون الى فنهم بكل ما لديهم من المواهب .

ومن الاسباب التي يجب أن ننبه عليها أن جل الذين ينقطعون الى فنّ الموسيقى أميون ينقصهم العلم والاطلاع على ما انتجت قرائح الامم الاجنبية قديمهـا وحديثها إذ بمحصوله تصقل العقول وبثمراته تغذّى القلوب وزدْ على هذا ما تفاحش في مغربنا في القرون الاخيرة من قلاقل وعدم الامن في الداخل والانعزال عن الامم الاجنبية وقطع مواصلتها في الخارج .

كل هذه الاسباب جعلت الموسيقيين يقاسون في سبيل المعاش عناء شديداً وتدفعهم الى الخمول والجمود فكانت نتيجة ذلك ما قرّره فيلسوف الشعراء أبو العلاء المعري حيث قال :

نلوم على تبلّدها قلوبا
تكابد من معيشتها جهادا
إذا ما النار لم تطعم ضراما
فأوشك أن تمر بها رمادا

على أننا والحمد لله نأنس فينا اليوم عدم الاكتفاء بما لدينا من الموسيقى العتيقة فان انفسنا تتوق الى غيرهـا

ويلوح ذلك جليا في إقبالنا على الموسيقى الاجنبية ولا سيما المصرية فان الناس يتهافتون على استماعها ومحاكاتها ولكن الى متى نبقى عالة على غيرنا في عالم الموسيقى ونمكث مصرين على تقليد القديم أو الحديث من إنتاج الامم الاجنبية ؟ هذا السؤال نجيب عنه فنقول لعل الله قيض للموسيقى المغربية من ينقذها من هذه الحالة ويخرجها الى طور الاستقلال لما بعث فينا الصبي النابغة محمد التويزي .

محمد التويزي لا زال في سنّ الصبا وهو مع حداثة سنه مفرط في الطول نحيل جداً يمتاز بعظم أذنه لا حدّة في نظره بل فيه وداعة وسكون اذا نظر اليك فنظره أشبه بالنظر في الفضاء منه بالنظر الى شيء معين يعلو وجهه ابتسام في غالب الاحوال تكاد تلمح منه روحاً هادئاً ساكناً فاذا انبرى يشدو زال عن شفتيه ابتسام الهدوء كما يزول ذهب الاصيل بعد غروب الشمس وبدت على وجهه امرات الاضطراب الداخلي واكتسى نظره عمقاً لا عهد لك به يتركك حائر الذهن يغشاك شيء من الدهشة والارتياع ولا تكاد تعتقد اذا رأيته في هذه الحالة أن له أدنى اختيار في كل ما ياتي وما يدع بل تتيقن أنه مجبور في حركاته وسكناته وكان ملكاً يصيح به من خلفه « اصدع بما تومر » أو كأنه آلة مسخرة في يد لاعب محتجب عن العيان يفعل بها ما يشاء ، هذه هي حالة محمد التويزي عند ما يكون مسترسلاً في الغناء وهذه هي حالة المغني العبقري التي صورها العقاد في قالب محسوس حيث قال:

وما المطرب الشادي بمبدع لحنه
ولكنه شبابة تترنم

وكل ما يشدو به محمد التويزي من الالحان فهو بديهي عنده لا أثر فيه للتعليم ولا للتقليد إن هو إلا وحي يوحى ،

لم يتلق قط درساً في الموسيقى ولا أعلم أنه مال يوماً الى محاكاة مغن ما .

استدعانا في هذه الايام صديق لوليمة عرسه وكان من جملة من ضمتهم الوليمة محمد التويزي وكانت جماعة من الأليين تدوّر اطباعاً رائقة من الموسيقى الاندلسية تحت رئاسة البريهي وناهيك بالبريهي في هذا الفن وكانت الحضور تستمع وتطرب وتلهو وتتحادث اثناء ذلك فلما سكتت الموسيقى الاندلسية طُلب من محمد التويزي أن يترنم ببعض أبيات شعرية فأجاب لذلك من غير تردد وانبرى برسل من شفتيه ما يوحي الله به اليه وصارت الناس تقبل أفواجاً أفواجاً وتزدحم حوله حتى جلس بعضهم على بعض اوكاد ولا ترى منهم الا متململا كانه جالس على الجمر أو باسماً شاخصاً بالبصر او ذاهلا مصفر اللون وما زال الصوت يرتفع ويهوى ويعمق ويتسع ويلتوي ويستقيم وأرواح السامعين تخف وتحرر شيئاً فشيئاً من قيود الاجسام حيث يسري الصوت بين طواياها الى أعمق أغوارها ثم تحلق مرفرفة تلبي دعوة الداعي . فلما سكت الصوت بقيت الناس مبهوتة وقد ذهلت عن كلمات الاستحسان والاعجاب وحتى عن التصفيق ! ولما رجع السامعون الى أنفسهم بعد هنيهة صار يلتفت بعضهم إلى بعض وتتساءل أنظارهم عما دهاهم وعن هذه القوة الخلابة التي حبا الله بها ذاك الشخيص النحيل .

هذا ما أمكننا أن نلاحظ من شأن هذا الفتى العجيب وأن فيه لما يبعث الامل ويزيدنا ثقة بنجاحه أنه يتردد الى المدرسة ويقبل على دروسه يتلقاها بغاية الاعتناء ونود أن يتلقى دروساً في الموسيقى فان هو أتم على ذلك ووجد من يمد له يد المعونة من أهله وأقاربه وأصدقائه يكون من شأنه ما يكون في نهضة الموسيقى المغربية .

أحمد ابنّ حنيني